



تمظهرات المعتقدات الشعبية في الرواية الجزائرية المحلية
قراءة في نماذج

Popular Beliefs Manifestations in the Local Algerian Novel
A Perusal in Models

حسيبة صامت

جامعة تيسمسيلت (الجزائر)، hassiba.samet@univ-tissemsilt.dz

ملخص:

مثلت الرواية الجزائرية الفضاء الخصب والمجال الرحب لاستيعاب جل مظاهر وأشكال المعتقدات الشعبية للمجتمع الجزائري؛ حيث لعبت دورا مهما في تتبع ملامحه والكشف عن تمظهراته وإبراز خصائصه في عُرْف الثقافة المحلية الجزائرية. وعليه نروم من خلال هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة تحليلية واصفة لبعض النماذج الروائية الجزائرية ذات الطابع المحلي، قصد تتبع أبرز تجليات المعتقد الشعبي الماثلة في المتن السردى الجزائري الذي ألفيناه حافلا بمختلف العادات والتقاليد والطقوس والممارسات، وكذا معاينة أهم أشكاله وأبعاده الثقافية والاجتماعية، ولمعرفة ما مدى تأثيره على العقلية العربية وتوجيه أفعالها وسلوكياتها؟ وكيفية توظيف الروائيين له؟
كلمات مفتاحية: المعتقدات الشعبية، الرواية الجزائرية، الموروث الثقافي، المحلية، الأشكال والأبعاد.

Summary:

The Algerian novel represented a fertile space and a broad platform for accommodating various manifestations and forms of popular beliefs in Algerian society. It played a significant role in tracing its features, revealing its manifestations, and highlighting its characteristics within the framework of Algerian local culture.

المؤلف المرسل: حسيبة صامت، الإيميل: hassiba.samet@univ-tissemsilt.dz

Therefore, through this research paper, our aim is to provide a descriptive and analytical reading of some Algerian novels with a local character. This is to track the prominent expressions of popular beliefs embedded in the Algerian narrative text, which is rich with diverse customs, traditions, rituals, and practices. Additionally, we seek to examine its significant forms and cultural and social dimensions, as well as to understand its impact on Arab mentality and the direction of its actions and behaviors. Furthermore, we aim to explore how novelists employ these beliefs.

Keywords: popular beliefs, Algerian novel, cultural heritage, local, forms and dimensions

1 – المقدمة:

تعتبر المعتقدات الشعبية ظاهرة فكرية راسخة في المجتمعات الإنسانية منذ القدم ولا زالت حتى وقتنا الراهن، قد فرضت سيطرتها وحضورها على العقلية العربية فباتت توجه أفعالها وسلوكياتها، وأشكال تفكيرها وتعبيرها فالشعوب العربية كانت ولا تزال تتخذ من الظواهر الطبيعية والاجتماعية مصدرا أساسيا لاستلهاام المعتقدات الشعبية، متجاوزة بذلك قوانين العقل والمنطق.

وما ينبغي التنويه إليه، أن المعتقد الشعبي يستمد أهميته وشرعيته في المجتمعات العربية من كونه يمثل إحدى أبرز مظاهر وأشكال الهوية الثقافية والمحلية للمجتمع الواحد، أو لعدة مجتمعات تمتلك موروثا شعبيا مشتركا، فقد حظيت المعتقدات الشعبية بحضور بارز وواسع جدا أصبحنا نلفي مظاهره وتجلياته عبر كافة المستويات والمجالات، فكان للممارسات الأدبية والإبداعية الحظ الأوفر منه في تناولها لمختلف العادات والتقاليد والطقوس والممارسات الشعبية.

إنّ المعتقدات الشعبية أحد أهم أشكال الثقافة الشعبية التي تنتقل من الأسرة نحو المجتمع فتقوم وفق وظائف وممارسات تحددها الجماعة، وتتوارث جيلا بعد جيل من الماضي إلى الحاضر، أما هدفها فيتمحور حول إشباع الحاجات الاجتماعية والنفسية والروحية الجماعية للأفراد، ومن هذا المنطلق يمثل المعتقد الشعبي «عنصرا مهما من عناصر الثقافة التي تتأثر بما يحيط بها من عوامل التغير، والتي يكون فيها المعتقد أقل عرضة للتغيرات من غيره من عناصر الثقافة من حيث المضمون، أما من حيث الممارسات السلوكية الدالة على هذا المعتقد، فهي أكثر عرضة للتغير، لتواكب عوامل

الزمن والتقدم المصاحب له، بهدف المحافظة على وجود هذه المعتقدات وتدعم استمراريتها بين أفراد الجماعة الواحدة بما يحفظ للمجتمع هويته واستقراره»¹.

وقبل ولوجنا لمساءلة متن هذه الظاهرة، لابد لنا من تقديم أهم الحدود المفهومية لمصطلح المعتقدات الشعبية، فمن الناحية الاصطلاحية تشير المعتقدات إلى ما أكدت عليه دراسات علم الفلكلور من تغيير طرأ على هذا المصطلح، بحيث « قديما كانت المعتقدات تسمى الخرافات أو الخزعبلات خاصة عند رجال الدين، لأنها لم تكن تمثل لهم أكثر من مفاهيم وأفكار لا علاقة لها بالدين، فالمعتقدات راسخة في قلوب الناس تؤثر على نفوسهم وترسم لها مخيلاتهم أشكالاً مختلفة، وهي قناع كاشف يختلج في نفوس الشعب من إحساس وشعور وفرح وخوف وإيمان وتطير»².

أما مصطلح الشعبية حسب "فايس weiss"، فيرد في سياق وصف الاتجاهات البشرية الفردية، ليصبح هذا المفهوم سيكولوجيا، إذ يقول: «توجد الحياة الشعبية والثقافية الشعبية دائما حيث يخضع الإنسان كحامل للثقافة في تفكيره، أو شعوره أو تصرفاته لسلطة المجتمع والتراث»³، فمصطلح الشعبية من هذا المنظور يطلق على كل تصور أو ممارسة فردية خاضعة لسلطة الجماعة. في حين يربط "فان جنب van Genep" كلمة (شعبي) بما هو جمعي فيرى أنها: «ذات أهمية أساسية لعلمي الإثنولوجيا الإقليمية والفولكلور، إذ تدل على عنصر خاص من عناصر الحياة الاجتماعية الذي لا يتناوله أي علم آخر بصفة رئيسية، وهي تعني في رأيه شيئا جماعيا (غير فردي)، ومجهول المؤلف»⁴.

كما تشير صفة الشعبية في اقترانها بمصطلح المعتقدات، فيما ذهب إليه محمد الجوهري، للدلالة على «ما تدل عليه عبارة الأغاني الشعبية أو العادات الشعبية، أي أننا نقصد المعتقدات التي يؤمن بها الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي»⁵.

وترتبط المعتقدات الشعبية عموما بكل التصورات الذهنية للفرد والجماعة حول الحياة والكون والعالم الخارجي والقوى الخفية، فهي من منظور محمد الجاهري: «تلك الأفكار والأحاسيس التي تحرك الناس إزاء الظواهر الطبيعية العادية والشاذة، كتصورات الناس حول الزلازل والبرق والخسوف وكذلك تصورات الناس عن أسرار بعض الظواهر الفيزيائية والنفسية، كالأحلام والنوم والميلاد والولادة والخلاص والموت

ورؤية المستقبل»⁶. كما تتخذ المعتقدات الشعبية عدة أشكال من بينها اعتقاد الضرر والنفع في الأحجار والأشجار والحيوانات والتبرك بالأولياء والأضرحة، بالإضافة إلى السحر والطلاسم والشعوذة والتنبؤ بالمستقبل ومحاولة استطلاع عالم الغيبيات، وغيرها من الممارسات والطقوس التي تتخذ حيزاً هاماً من التداول في المجتمعات العربية، فقد تتباين مظهرات هذه الطقوس من مجتمع إلى آخر، غير أنها تلتقي وتتشاكل في سعيها لتحقيق مقاصد وأغراض محددة.

وما ينبغي التنويه إليه، أن المعتقد الشعبي قد حظي طيلة مراحل زمنية متباينة باهتمام منقطع النظير، نكاد نلفي ملامحه على مستوى جل أجناس التعبير الشعبي، ولعل الرواية من أكثر الأجناس الأدبية استيعاباً لمظهرات المعتقدات الشعبية؛ فقد مثلت حيزاً كبيراً في الرواية العربية عامة، والرواية الجزائرية المحلية خاصة، وهو دافع يعاز إلى: «توجه الرواية في العقدين الأخيرين إلى الاهتمام بالمحلية، بوصفها تحقق لها التخلص من هيمنة الرواية الغربية من جهة، وتؤسس لرواية عربية تسهم إلى جانب الأنشطة الثقافية الأخرى في معالجة الواقع، وبذلك يضفي عليها خصوصيتها وهويتها الشعبية المحددة بالبيئة المعينة، ولذلك دوافع إيديولوجية وثقافية وفنية ترتبط بمحاولة رسم ملامح وسمات فنية عامة للرواية العربية، ثم أخرى تعبر عن المضمون وهي خاصة بهذه الرواية ضمن جغرافية محددة من الوطن العربي»⁷. ومن هنا برز اهتمام الروائيين بالمعتقدات الشعبية بوصفها إحدى أهم أشكال الموروث الشعبي الغني بالأبعاد الاجتماعية والنفسية لجوانب الحياة اليومية للإنسان الشعبي، مما عكس الوعي بقيمة التراث باعتباره مكوناً أساسياً من مكونات الهوية المحلية.

إنّ ما يفسر استمرارية المعتقدات الشعبية وتواترها بين الأجيال، هو قيام الذاكرة الشعبية الجماعية بالدور المنوط بها في حفظ التراث، «فلا خلاف على أن الذاكرة الشعبية الجماعية هي ما حفظت لنا هذا التراث المتواتر منذ طفولة البشرية الأولى، وهو الفلكلور والذاكرة الشعبية تحت تأثير العادة والتوارث حضورها وإعجازها لمن خبر التعامل معها، ذلك أنها مخزون متواتر الحلقات حفظ أدق دقائق شعائر وممارسات الولادة والموت لأولى أيامنا... كذلك فهي ذاتها الذاكرة الشعبية أو الشفهية التي أسهمت في الكشف عن الكثير من تراث البشرية التاريخي أو الحفري الأركيولوجي»⁸.

وما نروم إلى تقديمه من خلال هذه الدراسة، هو بحث وتبعية لتمظهرات المعتقدات الشعبية في الخطابات الروائية الجزائرية التي تميزت بالطابع المحلي، ليتسنى لنا بذلك إبراز بعدها الفكري والثقافي المتوارث عبر الأجيال بمختلف أشكاله، وكذا إبراز بعض الجوانب والأبعاد السلبية منها، ومن ثمة رسم ملامح وخصوصية الذاكرة الشعبية الجماعية للمجتمع الجزائري. فما هي أبرز العوامل التي أسهمت في تفشي هذه المعتقدات في المجتمعات العربية؟ وماهي أهم التمظهرات والأشكال التي اتخذتها عبر الرواية الجزائرية؟ وعليه سنقدم قراءة تحليلية واصفة لبعض النماذج الروائية الجزائرية لنجيب في ضوءها عن الإشكاليات السابقة.

2- عوامل تفشي المعتقدات الشعبية في المجتمعات العربية:

رغم أن المعتقدات الشعبية السائدة في المجتمعات العربية لم تكن قائمة على حقائق علمية مثبتة، أو تفسير عقلي منطقي، أو وفق عقيدة دينية صحيحة وسليمة، إلا أنها حظيت بتداول واسع ومتوارث عبر الأجيال، حيث أصبحت تعبر عن جانب مهم من البعد الثقافي للمجتمعات، كما ألفت بظلالها على جل الممارسات والتصورات الذهنية للأفراد فباتت توجه أفعالهم. وهذا ما يدفعنا للبحث والتساؤل حول أهم العوامل التي أسهمت في تفشي وانتشار هذه الظاهرة الفكرية الإنسانية المتصلة بالعالم الغيبي أكثر من الواقعي. وبالاستناد إلى المعطيات التاريخية والاجتماعية الماثلة في المجتمعات العربية، نستطيع القول أن من أبرز هذه العوامل هو: « التفكير الخرافي، حيث ساعد على بقائها واستمرارها لأطول أمد، والعوامل التي ساعدت على تفشي المعتقدات، أو كما كانت تسمى قديما الخرافات عديدة، من بينها الرحلات المختلفة بين المجتمعات؛ حيث ساعد اتجاه المغاربة الدائم إلى المشرق على نقل ما كان يروى هناك في مختلف الموضوعات، ما تنذوقه الأوساط الشعبية من دين وتاريخ وطرائف وغرائب وخرافات، فمكتهم من ذلك اندماجهم مع أهل الشرق، مما جعلهم يتأثرون بالعادات والتقاليد الشعبية »⁹. يضاف إلى هذه العوامل، عوامل أخرى لا تقل أهمية وتأثيرا عن سابقتها من أهمها: انتشار مظاهر الجهل والتخلف، وشيوع الخرافات والأساطير، وضعف الوازع الديني نتيجة لضعف الدراية الكافية بتعاليم الدين الإسلامي القويم، وكذلك التأثير بالمناهج الدينية والعقائدية الغربية الوافدة إلينا في إطار المثاقفة والتلاقح العلمي مع الثقافة الغربية. ومن العوامل السلبية التي شكلت الباعث الأقوى على انتشار مثل هذه الظواهر السلبية في المجتمع

الجزائري، هو عامل الاستعمار الذي سعى إلى القضاء على الدين وحل الخرافات والأساطير والأوهام محله، بغية التمكن من السيطرة على العقل الجزائري ومن ثمة السيطرة على هويته وأراضيه.

3- تمظهرات وأشكال المعتقدات الشعبية في الرواية الجزائرية المحلية:

تجسد المعتقدات الشعبية بما فيها من عادات وتقاليد وقوانين تتحكم في الممارسات الاجتماعية للشعوب مظهرا من مظاهر الثقافة المحلية للمجتمع، ذلك أن «مفهوم المجتمع يتضمن بالضرورة بعدا وجوديا مهما، هو الثقافة التي تشكل المظهر الحضاري للمجتمع وتشكل منه، لتضمن بقاءها وتواصلها، في الخلفية المشتركة التي تجعل الفرد ينتمي إلى الجماعة، وهي التي تعطي لهذه الجماعة ماهيتها وهويتها، التي تميزها ككائن قائم بذاته عن باقي الكيانات والمجتمعات الأخرى»¹⁰.

والمعتقد الشعبي يتخذ حيزا هاما من التداول في المجتمعات الجزائرية، على اختلاف مناطقها وكثافتها ساكنها بتعدد مستوياتهم الثقافية وتباين خلفياتهم الفكرية؛ فهي ليست حكرا على منطقة أو فئة اجتماعية دون غيرها، بحيث «تتصل المعتقدات الشعبية بالطبيعة البشرية في الريف والمدينة، وهي لا تميز في سيطرتها على العقول بين الأمي والمثقف، ذلك أن التفكير السطحي الساذج المجرد من المعرفة العلمية لا ينحصر في الفئات الشعبية، وإنما نجده على نطاق واسع من السلم الاجتماعي لأفراد المجتمع الواحد. فالمعتقدات جزء من الكيان البشري إذن، تعبر عن التصورات إزاء الظواهر الطبيعية، يؤدي فيها الخيال دورا هاما تكتسب من خلاله طابعا خاصا، ثم أنها عالقة بالمواقف الإنسانية العامة»¹¹. وهذا ما حاولت الأعمال الروائية تأكيده وإبرازه في متونها السردية، وما سنحاول إبراز ملامحه وأشكاله ضمن بعض النماذج الروائية المختارة.

3-1: تمظهرات المعتقد الشعبي في رواية (ريح الجنوب لعبد الحميد بن هدوقة):

صدرت عن الروائي عبد الحميد بن هدوقة العديد من الأعمال الرواية ذات الطابع المحلي، فمثلت بذلك مرجعية ثرية يحتذى بها في مجال التأريخ والتعريف بالمناطق الريفية للجزائر، بعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها وكل ما يمد بصلة مع موروثها الثقافي، مما ساهم في إبراز خصوصيتها الثقافية المحلية، وبذلك «يعد الروائي "عبد الحميد بن هدوقة" من أوائل الكتاب الذين التفتوا فنيا إلى حياة الأسرة الجزائرية الريفية، بكل مظاهرها وأبعادها، ومعتقداتها الشعبية البعيدة عن المنطق العقلي السليم، بهدف

التعريف بها من جهة، والنهي عن السلبي فيها، والاستمساك بالإيجابي منها بوصفه رمز الهوية والأصالة من جهة أخرى»¹².

تأخذ المعتقدات الشعبية عدة أشكال وملامح، تبرز من خلال الممارسات الاجتماعية والطقوس التي يؤديها أفراد المجتمع، ومن أكثر هذه الممارسات استفحالا بين الشعوب ظاهرة الشعوذة والتي يلجأ إليها أغلب سكان الأرياف اعتقاداً منهم أن: «الجن تساكهم وتلازم حركاتهم وسكناتهم، وأنها لا تقهر إلا بتلاوة الآيات والتعاويذ المختلفة وهم يحسبون أنها أكثر ما تكون بالأماكن القذرة والمستنقعات، وأغلب ظنهم أنها تصيب الإنسان وهو يغتسل عند غروب الشمس أو بالليل، أو إذا وقعت رجله بحمأة أو مستنقع»¹³.

ومن أبرز موضوعات الشعوذة الجن: «حيث يعتقد كثير من الريفيين بوجودها، وأنها قادرة على أن تسكن الإنسان وتلازمه بل حتى في بيته، كما يكثر تواجدها في المناطق الخالية وأيضاً في الأماكن التي تتجمع فيها القاذورات والأوساخ، فتراه يتعوذ بالله منها كلما صادف مروره بها، ومن لم يتعوذ منها يصيبه مكروه... في مثل هذه الحالات يلجأ إلى الطالب هكذا يدعى في الريف، حيث يحاول تحديد الإصابة ثم يقترح العلاج»¹⁴.

وفي أغلب الأحيان يقترح الطالب على أهل المصاب تقديم الذبائح، بغية طرد الأرواح الشريرة باعتبارها تفضل الدماء، وهو الأمر الذي نجد ملامحه ماثلة في نص الرواية «تجب العزيمة (نوع من الرقي المعقدة)، اختر معزة سوداء واذبحها سلاله ابن الأحمر لا تخرج بدون إراقة دم، وآتوني بمحبس من جمر»¹⁵.

كما يلجأ الطالب في بعض الأحيان إلى استخدام بعض الأعشاب والعقاقير "وأخرج كيساً صغيراً به عقاقير مختلفة، لم تعرف منها خيرة إلا الجاوي، فوضع جزءاً منها في النار وأخذ الورقة التي بها صورة الهيكل البشري فوضعها على جبين نفيسة وأمر الأم أن تمسكها"¹⁶. وفي أحيان أخرى يلجأ الطالب إلى صناعة التماثيل، إحياء منه بنجاحاتها في طرد الأرواح الشريرة والجن (من الإنسان أو البيت)، وكذا توفير الحماية والتحصين لصاحبها «وأخذ الشيخ حمودة يكتب حروفاً وأرقاماً متتالية ثم ينزلها في جدول مخمس، وهو يتمتم... إن جنياً من سلاله ابن الأحمر أصابها عندما تخطت مكاناً به ماء»¹⁷.

وتمثل العزيمة إحدى أهم العوامل الحاسمة في إبطال السحر، يوظف من خلالها الطالب كل قدراته لتسخير الجن واستدعائها بأسمائها «وبعدها قرأ سورتي

المعوذتين ثم آية الكرسي، وأخيرا شرع في العزيمة: أين ابن الأحمر، أين ابن الأزرق، أين ابن الأكل، أتوني جميعا بجنودكم وخيولكم، ومحلاتكم...»¹⁸. ومن الملاحظ أن العلاج بالقرآن الكريم يأخذ هو الآخر حيزا ولو بسيطا من الممارسة العلاجية، وذلك نظرا لأهميته الكبيرة في المجتمعات الجزائرية، فمن دوافع هذه الممارسات الاعتقاد الديني الراسخ لدى الأفراد والذي لطالما مثل سببا كافيا للاستمرارية، ولذلك فإنه «مع انتشار الطب الحديث وأساليبه، إلا أن الحاجة والضرورة دعت للرجوع إلى أساليب العلاج التي عرفت في الماضي، نظرا لوجود أعراض مرضية مجهولة الأسباب، أو ترجعها العقلية الشعبية إلى تأثيرات الكائنات فوق الطبيعية - غيبية-»¹⁹. بعد إقامة كل الطقوس المتعلقة بإبطال السحر، يستشعر المصاب ومن حوله بالاطمئنان، اعتقادا منهم بقدرة الطالب على امتلاك العلاج وقهر الأرواح الشريرة، فلا يتوانون في مكافأته بما يشاء ويطلب، ويقدمون له الشكر كل حسب طريقته يقينا منهم بالشفاء.

3-2: تمظهرات المعتقد الشعبي في رواية (الجازية والدراويش لعبد الحميد بن هدوقة):

تناول الروائي من خلال هذا المتن الحكائي مظهرا بارزا من مظاهر المعتقدات الشعبية التي نلفي لها رواجا واسعا في المجتمعات الريفية الجزائرية وهي "الزردة"، باعتبارها تمثل تقليدا شعبيا راسخا، تقام له احتفاليات خاصة في مناطق الأرياف، «فهو ظاهرة تقتصر ممارساتها على الوسط الريفي دون غيره، وهي مناسبة يعبر فيها الريفيون عن تجذر هذه الظاهرة، ويستعرضون من خلالها أنماط سلوكية، حيث يختلط فيها الغناء بالرقص والتضحية، إضافة إلى بعض الطقوس الدينية»²⁰.

تتجلى ملامح هذا التقليد الشعبي في رواية (الجازية والدراويش) باعتباره تقليدا وظاهرة اجتماعية جرت العادة على الاحتفال بها «تقام الزردة بدون ممارسة تقليدية تدعو إلى إقامتها، تشكل ظاهرة اجتماعية ممتازة، رغم ما يشوبها من خرافات وأساطير، فيها تزول الحواجز ويرتفع الحجاب، وغالبا ما تكون مناسبة للتعارف بين فتيان القرية وفتياتها المحجبات»²¹.

ومن المواقع التي يتفق عليها الريفيون لإقامة طقوس الزردة هي الأضرحة؛ اعتقادا منهم أنها لأولياء صالحين ذوي كرامات وخوارق، حيث «وقع بين السكان غيهم وعاقلمهم شبه اتفاق على إسناد الكرامة والخوارق للجامع والأولياء والدراويش»²²، مما أكسبهم لدى سكان المداشر مهابة وجعلهم أهل غيب.

كما يتوافد السكان على أضرحة الأولياء تيمنا بها وطلباً للعلاج من عديد الأمراض، اعتقاداً منهم بامتلاكها لأسباب الضر والنفع «إن أغلب السكان يعتقدون أن الدعوات الصالحات لدى أضرحة الأولياء السبعة تُؤلّد العواقم وتزوج العوانس... وأن من جاء إلى السبعة بنية سيئة لن ينجو من نقمة أوليائها، وكثيراً ما تحقق ظنهم لكن بأسباب خارجة عن الأولياء»²³.

3 - 3: تمظهرات المعتقد الشعبي في رواية (مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق):

استحوذت مظاهر وأشكال المعتقدات الشعبية على المتن السردي لـ (مملكة الزيوان) لحاج أحمد الصديق بشكل بارز جداً، وذلك لكونها تجربة سردية تؤرخ للملامح الهوية المحلية لمنطقة الصحراء، في أبعادها الاجتماعية والثقافية، ومن مظاهر الاحتفاء بالمعتقدات الشعبية في النص الروائي لمملكة الزيوان نجد:

3- 3- 1: المعتقدات المتعلقة بطقوس حفرة الرابطة:

يرمز مصطلح المرأة (الرابطة) في عرف منطقة توات إلى المرأة التي توفي عنها زوجها، وسميت الرابطة نسبة إلى ربطها في البيت، أي عدم خروجها منه إلى انتهاء آجال العدة، وفي هذه الفترة جرت العادة أن تتوافد النسوة إلى المرأة فتقدم لها أنواع المساعدات بما أتيح لهن من إمكانيات، وبعد انتهاء آجال العدة تتوجه إلى مكان خارج القصر يدعى (حفرة الرابطة)، وفي هذا الصدد يقدم الروائي وصفاً دقيقاً للملامح هذا المشهد السردي الذي يلفه الغموض والخوف فيقول: «هي حفرة شبه عميقة من عمقها الأفقي، تشبه تماماً مدخل كهف أو مغارة مخيفة، المكان يفرض على الماركيهما أن يلبس عباءة الرهبة المختلطة بالخوف...بيد أن ما أعطى للمكان وحشة حقاً هو تلك الثياب البالية المرمية والمحروقة بأشعة الشمس، والتمايم الكتانية والجلدية العتيقة، وكذا الأقداح الطينية القديمة المكسرة، والمتناثرة بين تلك الثياب البالية والتمايم المحجبة، عند مدخل تلك الحفرة للرباطات اللائي فسخن ثياب عدتهن في الخوالي من تاريخ القصر»²⁴.

فبعد إتمام المرأة للطقوس المتعلقة بحفرة الرابطة، «تتخلص من كل الوسائل والأدوات التي رافقتها واستخدمتها طيلة فترة رباطها، بحيث تفسخ كل تلك الثياب البالية، وكل ما كان يلزمها في رباطها من تمايم وأوانٍ طينية، وترتدي ملابس زاهية وذلك دليل على انتهاء الحزن وقطع الصلة بأحزانها السابقة وفسح مجال للسعادة»²⁵.

3-3-2: المعتقدات المتعلقة بميلاد الذكر:

وهو مظهر آخر من مظاهر الاحتفاء بالمعتقد الشعبي في منطقة الصحراء عامة، ومنطقة توات تحديدا والذي يمثل باعنا وعاملا أساسيا لاستمرار الميراث في عرف المنطقة، ففي هذا الصدد يقول الروائي: « كنت أعرف أن أمي يصيها الحبور والفرح، وتنتشي ببكائي وقت ولادتي، لأن ذلك سوف يبقي تركة أبي من البساتين والسباخ، وقواريط ماء الفقاير في عتبته، وبالتالي قطع الطريق على أعمامي، ولاسيما من جهة الأب الذين كثيرا ما ابتهجوا وذبحوا الأضاحي، وتوددوا بالقرين للأولياء والصالحين، وأشاعوا في أرجاء القصر مدى نجاعة جداول أيقش، ابتهجا بفساد الحمل وطرحه قبل أوانه، أو بميلاد الطوبة عندنا، لكون تركتنا قد حبست من الجد الأكبر للذكور دون الإناث »²⁶.
فميلاد الذكر في المجتمع الصحراوي له وقع مميز، وباعث على الحبور والفرح، بيد أن ميلاد الأنثى هو باعث على الشؤم لارتباطه بتوقف التركة والميراث.

3-3-3: المعتقدات المتعلقة بطقوس الولادة :

يمثل ميلاد الطفل حدثا بارزا ومناسبة سعيدة في المجتمع التواتي، يستدعي القيام بمجموعة من الطقوس واتخاذ بعض الإجراءات تحسبا لاستقبال المولود، من بينها استدعاء قابلة القصر، مثلما فعلت والددة الروائي عندما «اتصلت بقابلة القصر وعرافته (عيشة مباركة) التي ورثت الصنعة عن أمها، وتسمى أيضا في العرف التواتي (قطاعة الصرة)، وهذا لأنها تساعد المرأة على الولادة وتفصل جنيها عنها »²⁷.

كما ترافق عملية الولادة (الوضع) مجموعة من الطقوس والممارسات تسهلا لهذه العملية ورغبة في انجاحها، بحيث « عندما تتأهب المرأة لعملية الولادة في بعض المجتمعات ولاسيما القروية منها، يرفعون الأغطية عن الأواني ويفكون العقد المربوطة، ويفتحون النوافذ لتسهيل عملية الولادة، كما أنهم يستعينون لتسهيل هذه العملية بمفتاح ضريح أحد الأولياء ليضعونه على ظهر المرأة لتيسير الوضع المتعسر، كما ترفع الدعوات للأولياء وبخاصة للسيد البدوي من أجل (فك الضيق) عن الحامل، فضلا عن استخدام البخور لطرد الحسد أو العين الشريرة وخاصة وقت صلاة الجمعة »²⁸.

في موضع آخر يصف الروائي مجريات وتفاصيل الولادة، فيصور لنا عمل (النائرة) ابنة القابلة (عيشة مباركة)، وهي تساهم في استقباله مولودا جديدا أثناء الوضع، فيقول: « امتدت يداها تحت إبطي الأيمن والأيسر، حيث شعرت بأن كفا خشنة

تلامس جلدي الرخو الذي مازال يقطر منه زلال المخاض، ما أحدث حركة لزجة بين جسدي الرخو وكفها الخشنة»²⁹.

وقد تلجأ الداية (القابلة) إلى بعض الممارسات الاعتقادية، حرصا منها على إنجاح عملية الوضع وتيسيرها «كدحرجة المرأة الولادة يمينا وشمالا على عباءة رجل كريم، وتطعمها السمن والتمر والبيض أو السكر، أو تسقيها شراب القرفة أو تقلدها خرزا فيه أدعية وآيات قرآنية»³⁰.

3-3-4: المعتقدات المتعلقة بطقوس الختان:

يحظى الختان بأهمية خاصة في المعتقد الشعبي، حيث ترافقه عدة ممارسات وطقوس «يعقب عملية الختان للطفل ببعض الممارسات الاعتقادية شديدة الشيوع لدى بعض المجتمعات، وخاصة الريفية منها مثل زيارة الطفل لمقامات الأنبياء والصحابة والأولياء للتبرك بهم، وتعلق الأم فوق كتفه أو فوق صدره خرزة زرقاء»³¹.

تشتهر منطقة توات بإجراء الختان، أو ما يطلق عليه بمصطلح (الزيانة)، وهو اعتقاد شعبي يستوجب الالتزام به تطهيرا للطفل من النجاسة، وترافق هذه العملية مجموعة من الطقوس التي يقوم بها أهل توات، من بينها حلق رأس الطفل وإخراجه لزيارة ضريح ولي القصر، وتحضير الوليمة للحضور، وتلبيس الصبي بعباءة بيضاء واسعة وشاش أبيض، ومن بين الطقوس أيضا اكتحال الصبي ووضع الحناء له في يديه ورجليه، وتعليق توائم مربعة على قدميه مع مسمار حديدي وصرة أم الناس. تجري كل هذه الممارسات والطقوس قبل استدعاء الزيان لاستكمال عملية الختان.

يصف الروائي تفاصيل ومجريات هذه الطقوس فيقول: «ففي عشية ذلك اليوم... وبعد أن عملوا لنا حلاقة التقورية برأسينا... وألبسونا توائم مربعة من الكتان الأبيض ... وفي مساء ذلك اليوم بُعِدَ العصر، قطعوا لكل منا جريدة نخل خضراء بعد نزع شوكرها وسعفها، خلقوا لنا منها عصى كالعكاز تخطينا بها على الساقية ثلاث مرات معدودات»³². كل هذه الطقوس تحدث بوجود ورقابة البعض من أهل الطفل (المزين)، حرصا على إجرائها في أحسن الظروف.

يتضح لنا مما سبق أنَّ المعتقدات الشعبية في الرواية الجزائرية المحلية قد أخذت عدة أشكال ومظاهر، فكان هدفها هو إبراز خصوصية الموروث الثقافي الشعبي، في صوره الإيجابية وكذا السلبية، فهناك من المعتقدات ما يتخالف مع تعاليم الدين

والشريعة الإسلامية، وهذا ما ينبغي العدول عنه ومحاربتة للقضاء على مظاهره في المجتمع الجزائري، مثل السحر والشعوذة والتمين بأضرحة الأولياء؛ كونها تقود إلى الشرك بالله والكفر. أما فيما يتعلق بالمعتقدات التي لا تمس بتعاليم الدين الحنيف مثل الرقية الشرعية والعلاج بتلاوة القرآن فلا ضير باتباعها في حدود ما يسمح به الشرع.

4- خاتمة:

يمكننا في الختام أن نجمل أهم ما توصلنا إليه من خلال هذه الورقة البحثية في مجموعة من النتائج التالية:

- يمثل حضور المعتقدات الشعبية في الرواية الجزائرية مظهرا من مظاهر الهوية الثقافية المحلية للمجتمعات الجزائرية، في تعاقبها عبر أزمنة الماضي والحاضر؛ فالمعتقد الشعبي هو همزة وصل بين الأجيال والشعوب .
- يساهم المعتقد الشعبي في حفظ ذاكرة الشعوب والمجتمعات، من أجل التعريف بها للآخر.
- تتجلى ملامح المعتقدات الشعبية عبر جل الممارسات والتصورات الإنسانية، مما يعكس تجذرها وسيطرتها على العقلية العربية؛ وهذا ما حولها لتوجيه سلوك الأفراد وطرائق تفكيرهم.
- ساهمت سيطرة المعتقدات الشعبية على الذاكرة العربية، في تفشي مظاهر الجهل والتخلف، ومن ثمة البعد عن تعاليم العقيدة الإسلامية والنهج الصحيح في التفكير.
- يمثل جزء كبير من المعتقدات الشعبية الجانب المظلم من الذهنية العربية والجزائرية؛ التي كبلتها قيود الجهل والتخلف، فباتت تنساق نحو الأساطير والخرافات والأوهام، دون احتكام للعقل أو المنطق.

تأسيسا على ما سبق، يمكننا القول أن قضية المعتقدات الشعبية وتمظهراتها في الرواية الجزائرية هي من المواضيع التي لم تنل حظها الجيد من الدراسة والبحث، رغم أنها تبقى قضية شيقة ومهمة في نفس الوقت، لا تزال بحاجة للاستقصاء والتنقيب بغرض تحديد دوافعها ومظاهرها، وإبراز مدى تأثيرها على العقلية العربية في أبعادها السلبية والإيجابية، وتوجيه ممارساتها الإنسانية والعقائدية.

مراجع البحث وإحالاته:

1. عبد الحكيم خليل سيد أحمد: دراسات في المعتقدات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2013، ص: 21.
2. لخضر حشلافي: مكانة المعتقدات الشعبية في المجتمع العربي، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، مج 3، ع 1، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجلفة، الجزائر، ص: 286.

3. إيكه هولتكرانس: قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، تر: محمد الجوهري، حسن الشامي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط2، 1972، ص: 237.
4. المرجع نفسه، ص: 238
5. لخضر حشلافي: مكانة المعتقدات الشعبية في المجتمع العربي، ص: 285.
6. زهراء رابح: العادات والتقاليد والمعتقدات في رواية مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج 12، ع 03، جامعة أحمد دراية، أدرار، الجزائر، 2020، ص: 588.
7. شهيرة برباري: المعيار الجمالي للمخيال الشعبي وأثره في التشكيل السردي لرواية "راس المحنة" لعز الدين جلاوي، مجلة قراءات، مج 13، ع 01، جامعة بسكرة، الجزائر، 2021، ص: 318.
8. عبد الحكيم شوقي: مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2012، ص: 08.
9. لخضر حشلافي: مكانة المعتقدات الشعبية في المجتمع العربي، ص: 289.
10. محمد حكيمي: الإشكالية الثقافية وازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية المعاصرة، مخطوط دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة زيان عاشور، الجلفة، 2019 - 2020، ص: 14.
11. سليم بتهقه: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة، مخطوط دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009 - 2010، ص: 119.
12. كريمة نوادرية: تمظهرات الموروث الشعبي في النص الروائي الجزائري (قراءة في نماذج)، مجلة الأثر، ع: 33، المركز الجامعي ميله (الجزائر)، كلية الآداب واللغات، 2020، ص: 78.
13. عبد الحميد بن هدوقة: ربح الجنوب، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2012، ص: 253.
14. سليم بتهقه: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة، ص: 119.
15. عبد الحميد بن هدوقة، ربح الجنوب، ص: 250.
16. الرواية، ص: 251.
17. المرجع نفسه، ص: 249.
18. الرواية، ص: 251.
19. عبد الحكيم خليل سيد أحمد: دراسات في المعتقدات الشعبية، ص: 67.
20. سليم بتهقه: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة، ص: 120.
21. عبد الحميد بن هدوقة: الجازية والدراويش، دار الآداب، الجزائر، ط1، 1983، بيروت، 1991، ص: 65.
22. الرواية، ص: 53.
23. الرواية، ص: 65.
24. الصديق حاج أحمد: مملكة الزيوان، دار فيسيرا للنشر والتوزيع، ط1، 2013، ص: 15.
25. رابح زهراء: العادات والتقاليد والمعتقدات في رواية مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق، ص: 590.
26. حفيظة طعام: إضافات في الأدب الجزائري. قراءات أدبية. دار الكلمة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2016، ص: 121.
27. زهراء رابح: العادات والتقاليد والمعتقدات في رواية مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق، ص: 591.

- 28 . عبد الحكيم خليل سيد أحمد: دراسات في المعتقدات الشعبية، ص: 30.
- 29 . الصديق حاج أحمد: مملكة الزيوان، ص: 38.
- 30 . عبد الحكيم خليل سيد أحمد: دراسات في المعتقدات الشعبية، ص: 31.
- 31 . المرجع السابق، ص: 43.
- 32 . الرواية، الصفحات: 96 . 100 . 103.

قائمة مراجع البحث:

- [1] إيكه هولتكرانس: قاموس مصطلحات الأنثولوجيا والفلكلور، تر: محمد الجوهري، حسن الشامي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، ط2، 1972.
- [2] الصديق حاج أحمد: مملكة الزيوان، دار فيسيرا للنشر والتوزيع، ط1، 2013.
- [3] حفيظة طعم: إضافات في الأدب الجزائري – قراءات أدبية – دار الكلمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016.
- [4] زهراء رابح: العادات والتقاليد والمعتقدات في رواية مملكة الزيوان لحاج أحمد الصديق، مجلة علوم اللغة العربية وآدابها، مج 12، ع3، جامعة أحمد دراية، أدرار- الجزائر، 2020.
- [5] سليم بتقة: الريف في الرواية الجزائرية دراسة تحليلية مقارنة، مخطوط دكتوراه العلوم في الأدب الجزائري، جامعة الحاج لخضر، باتنة- الجزائر، 2009 – 2010.
- [6] شهيرة برباري: المعيار الجمالي للمخيال الشعبي وأثره في التشكيل السردي لرواية "راس المحنة" لعز الدين جلاوي، مجلة قراءات، مج 13، ع1، جامعة بسكرة- الجزائر، 2021.
- [7] عبد الحكيم خليل سيد أحمد: دراسات في المعتقدات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ط1، 2013.
- [8] عبد الحكيم شوقي: مدخل لدراسة الفلكلور والأساطير العربية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، دط، 2012.
- [9] عبد الحميد بن هدوقة: ربح الجنوب، دار القصبة للنشر، الجزائر، دط، 2012.
- [10] عبد الحميد بن هدوقة: الجازية والدرائش، دار الآداب، الجزائر، ط2، 1991.
- [11] كريمة نوادرية: مظهرات الموروث الشعبي في النص الروائي الجزائري (قراءة في نماذج)، مجلة الأثر، ع33، المركز الجامعي ميلة، كلية الآداب واللغات، الجزائر، 2020.
- [12] لخضر حشلافي: مكانة المعتقدات الشعبية في المجتمع العربي، مجلة الحقوق والعلوم الإنسانية، مج3، ع1، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجلفة- الجزائر، 2010.
- [13] محمد حكيمي: الإشكالية الثقافية وازدواجية اللغة في الرواية الجزائرية المعاصرة، مخطوط دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة زيان عاشور الجلفة- الجزائر، 2019- 2020.